إسهام منطقة توات في الدَّرس النَّحوي

أ.عبد الله عماري/ المركز الجامعي لتامنغست
a.ammari1984@yahoo.fr

ملخص :

[يدور البحث حول مدى إسهام أهل منصقة توات في الدَّرس اللُّغوي بصفة عامة، والعوامل التي أدّت إلى نشاط الحركة النحوية داخل المنطقة، معرجا على التعريف بالأعلام والشخصيات التي كان لها العطاء والإسهام في ذلك.]

تمهيد:

إنه لحريٌّ بالمرء قبل أن يعرف علماء العالم ومفكريه، أن يهتم بعلماء بلده بالدرجة الأولى ويعرفهم ؛ ذلك أن الجزائر أنجبت رجالاً اشتغلوا على الدرس النحوي، ظلُّوا _ ولفترة طويلة _ تحت طي النسيان، وجدار الصمت المخيِّم، على الرَّغم من وفرة الإبداع والأعمال التي تحمل في طياتها بوادر الاجتهاد والتجديد. وإذا كان الأمر كذلك، فإلى أي مدى يمكن أن يكون لمنطقة توات إسهام في الدرس النحوي؟ وما هو المنهج المعتمد في مصنفاتهم النحوية ؟

تجدر الإشارة هنا إلى أن منطقة توات هي منطقة أمان واستقرار،الأمر الذي جعلها محجَّ الثقافات المتعددة، وقبلة لكل ذي حاجة، فكانت المنطقة في حقبة من الزمن - ولا تزال- أرضاً خصبة للعلوم والمعارف، حيث وفد إليها العلماء من شتى الأمصار، فصارت ملتقى الأفكار العلمية بما تحويه من الزوايا الكبرى التي تأسست بفضلهم،وبفضل هذا الاستقرار تمكّن أهل المنطقة من التحصيل حتى نبغ فيهم العلمـاء والأدباء الذين تولوا الإفتاء والتدريس، وكذا إدارة الزوايا التعليمية.

كما اتخذ التصنيف النحوي في منطقة توات طابعاً خاصاً في معظم أحواله، حيث جاء في صورة متون ومختصرات، وشروح لها، وقلَّما تجد مصنفاً قد خرج عن هذا الطابع، وإن كانت المتون والشروح غير صالحة لتعليم النحو - في نظر البعض- لأنها تعقيبات واستدراكات، فإنّها بلا شك تفيد المتخصصين في بحوثهم النحوية بوجه خاص، واللغوية بوجه عام، على أنها ضرورية بالنسبة للمتعلمين في تعديل مسار القاعدة وتصويبها من بعض الجوانب، فلا

ينبغي أن نستهين بهذا النوع من المصنفات، وأن نعدها تراثاً مهملاً غير موائم لعصرنا.

التعريف بالمنطقة:

توات هي اسم بربري أُطلق على الواحات[1]، وهي منطقة عريقة تقع في الجنوب الغربي للجزائر، ويُعرف عنها أنها " أرض ذات سباخ[2]، كثيرة الرمال والرياح، لا تحيط بها جبال ولا أشجار"[3].

لُقبت بهذا الاسم من حوالي سنة 518هـ[4]، حتى بداية القرن الرابع عشر الهجري لتأخذ الاسم المعروف حالياً بأدرار[5]،كما أن عدد قصورها يناهز المائتي قصراً[6]،موَّزعة في ثلاث مناطق هي قورارة[7]، وتوات الوسطى، وتيديكلت[8]،

أما الحديث عن شأن التسمية، فقد اختُلف في تسمية توات بهذا الاسم، فهناك من يرى أنها أخذت هذا الاسم، لكونها أرضا مليئة بالأتوات، أي الخيرات، لذلك سُمي أهلها قديماً بأهل الأتوات أي الفواكه والخضر[9]، وآخر يرى في سبب التسمية أن هذه الأرض بقعة تواتي- من المواتاة- لعبادة الله تعالى[10]، في حين أن هناك من يرجع تسميتها إلى مرض معروف في مالي يصيب الرجلين يقال له "توات"،ورواية ذلك أن قوما من مالي مرُّوا بهذه الديار، قاصدين بيت الله الحرام لأداء فريضة الحج، فأُصِيب بعضهم بمرض معروف عندهم باسم "توات"، فوجدوا هذه الأرض مخضرة، وذات بساتين، وواحات، فمكثوا بها واستقروا حتى سموها بالمرض الذي أصابهم[11] ؛وهذا السبب مستبعد أن يكون صحيحاً، لأن المنطقة حينها لم تكن مهجورة من السكان، فعمارتها "ترجع إلى ما قبل الإسلام"[12]، فكيف يمكن أن تبقى هذه الأرض المخضرة، المليئة بالبساتين والخيرات، الكثيفة السكان مدة طويلة دُون اسم ليأتي غرباء من أرض مالي فيسمونها بهذا المرض.

وبمجيء الإسلام،حظيت المنطقة بهذا الدين على يد عقبة بن نافع الفهري[13]،سنة 46هـ [14] حينها اتسمت المنطقة بحركة عالية من الحركة العلمية،وتمثل ذلك في عكف أهلها على حفظ كتاب الله تعالى، وتنشيط حركة العلم في الزوايا المنتشرة انتشار سكانها وعلمائها، الذين حملوا راية العلم في سائر أقطارها تدريساً،وتأليفاً في شتى العلوم والمعارف، وإن دلَّ هذا على شيء فإنما يدل على حرص التواتيين وحبهم للعلم والقرآن الكريم.

أضف إلى ذلك أن المنطقة لم تخضع للدولة العثمانية كما خضعت لها معظم الأقاليم الجزائرية والعربية، مما جعل اللغة العربية فيها تسلم من مزاحمة اللغة التركية[15]، وهذا ما مكّن علوم العربية – و بخاصة النحو- من أخذ قسطها الأوفر من العناية والدراسة، وذلك بمعالجة مواضيع علوم اللغة من نحو،وصرف، وبلاغة، وعروض، إما بالشرح أو بالتعليق على النص، أو بتجديد طريقة العرض ؛بوضع النص على شكل أرجوزة ليسهُلَ حفظها، تماشياً مع أساليب التعليم والحفظ المتّبعة عندهم وقتذاك[16].

عوامل نشاط الحركة النحوية في المنطقة:

شهدت منطقة توات حركة نحوية أسهمت في الحياة الثقافية للإقليم، ونشطت هذه الحركة بفضل عدة عوامل منها:

1- توافد العلماء على المنطقة: لقد ساهم الدين الإسلامي الذي اعتنقه المجتمع التواتي قلباً وقالباً في غرس مبادئ الود والتراحم،والعطف والتآخي فيما بينهم ؛ هذه المبادئ التي ارتقت بهم إلى ما يُسمى بالاستقرار الاجتماعي، لذلك وُصف إقليم توات بأنه أرض "أمان واطمئنان"[17]، وفي هذا الشأن يصف الرّحالة الألماني جيرهاردر رولف[18] أهل المنطقة بـ: "أنهم قومٌ مُسالِمون يُحبون الغرباء ويحترمون رجال الدين"[19]، وكذلك الفرنسي ديبورتر[20] الذي يُقر بتمسك أهل توات بدينهم وكرمهم مع الغرباء وبالمسالمة مع جيرانهم[21]، الأمر الذي جعل الأجنبي – بحكم أنها منطقة عبور وتواصل بين مختلف الشعوب في شمال إفريقيا وجنوبها[22]- يتجوّل في هذه الديار "ذات المناخ الحار"[23]، دون أن يجد أدنى شيء من الضيق أو الحرج، وهو ما يفسر لنا الكرم والسخاء الذي كان يتسم به أهل المنطقة.

كما أن المنطقة كانت بعيدة عن مراكز الصراع السياسي، مما جعلها تتميز بالهدوء الذي أتاح المجال للنشاط العلمي، وجعل الإقليم مركز جذب للعلماء الفارين من مناطق الصراع السياسي[24].

ومن خلال ما سبق، فلا غرابة أن تكون أرض توات، منطقة أمان واستقرار، وهو ما كان دافعاً لتوافد كثير من العلماء، فأنشأوا بها المدارس التي كان من مبادئها نشر الإسلام والعربية مما ساهم في بث الروح الثقافية في المنطقة، كما عمل هؤلاء العلماء الوافدون على تدريس المنظومات الفقهية والنحوية،وتفسير كتاب الله تعالى بلغة تفهمها الخاصة والعامة من الناس[25]، فضلاً عن تأثرهم وتأثيرهم في من حولهم.

وبهذا كان لوفود هؤلاء المشايخ دور إيجابي انعكس على واقع المنطقة، تمثل في تعليم الناس أمور دينهم ودنياهم، بالإضافة إلى تنشيط الحركة اللغوية داخل القطر بفضل دور العلم والزوايا التي كانوا يشرفون عليها.

2- <u>الزوايا العلمية:</u> تزخر المنطقة بهذا المَعْلم الفكري الموّجه والمربي للنفوس، فهي وسيلة ناجعة في أداء الرسالة العلميّة، كما تعد نموذجاً إسلامياً في التعليم والإرشاد لما لها من دور في خدمة الحركة الدينية، وذلك بتعليم القرآن الكريم،وعلوم الشريعة لجميع الشرائح الثقافية بمختلف أعمارها الذين يتوافدون عليها من أماكن مختلفة – يستفيدون من نظامها الداخلي بحكم بُعدهم عن مقارّ سُكناهم – للجلوس إلى الشيوخ المؤسسين لهذه الزوايا والاستماع إليهم.

هذه الزوايا التي غلب عليها الطابع الديني لم يمنع ذلك من وجود حركة نحوية بداخلها، فقد كانت هذه المعارف الدينية تتخللها وقفات لغوية، كدراسة علامات الإعراب مرة كل أسبوع[26]، بالإضافة إلى تحفيظ بعض المتون النحوية[27] كـ: الآجرومية،ولامية الأفعال،والألفية، وملحة الإعراب، وقطر الندى، حيث كان يعمد الطلاب إلى حفظ أجزاء من هذه المتون،فتعرض على الشيخ ليقوم بشرحها، مع إعطاء الشواهد المتعلقة بكل بيت، وتبيين الخلاف النحوي في المسألة إن وُجد[28].

ولا يظنّن أحد أن هذه الزوايا اقتصرت في تدريسها النحو على المختصرات المتأخرة وشروحها، فالأمر لم يقتصر على ذلك، لأن تبيين الخلاف في المسائل النحوية التي كان يغوص فيها هؤلاء الشيوخ أثناء التعليم تتطلب منهم- دون شك- الحديث عن البذور الأولى لهذا الخلاف، وكيف نشأ، وما هي أطرافه، وأسبابه، وماذا نتج عنه. وغالباً ما يدفع ذلك إلى التعمق والبحث،ومراجعة كتب المتقدمين بهدف الضبط، ومن هنا يتضح لنا أن هذه المجالس العلمية التواتية تطرقت لأهم الأصول النحوية، ولأقطاب المدارس النحوية على اختلاف آرائهم.

وقد يكون واضحاً الآن أن هذه الزوايا العلمية أدّت دوراً هاماً في مكافحة الأمية، مع خدمة الشريعة الإسلامية، فضلاً عن أنها ساعدت على نشاط الحركة النحوية داخل الناحيّة التواتيّة.

3- الرحلات: وتتمثل في الانتقال بين البلدان للقاء المشايخ ومناقشتهم، إذ تعدُّ هذه الرحلات وسيلة بارعة من وسائل التكامل الثقافي في المنطقة، ويمكن أن تكون تقريراً يعكس إلى حدٍ ما الحركة العلمية لدى العلماء[29].

ولقد كان هذا الانتقال أوّل الأمر داخل المنطقة بين الشيوخ للمناقشة والتكوين وكذا الاستزادة والتبحر في علم النحو وسائر العلوم الأخرى، حتى دعموا هذا التكوين بالتجوال وشدّ الرّحال إلى سائر الأمصار الجزائرية، كتوجههم إلى تمنراست،وورقلة، وسعيدة، ومتليلي، وتيارت، وتلمسان وغيرها من الجهات[30]، بل حتى إلى خارج الوطن، ويكثر ذلك أثناء السفر لأداء فريضة الحج، فأثناء العودة من هذه البقاع المقدّسة يمرُّون ببعض الديار المصرية، والليبية،والتونسية والمغربية[31]،وكل ذلك رغبة في ارتياد مراكز العلم للتلمذة على أيدي كبار العلماء، ومناظرتهم، كما فعل الشيخ محمد المغيلي[32](ت909هـ) في مناظرته مع السيوطي (ت911هـ) في القرن 09هـ [33]، بالإضافة إلى تنقلاتهم إلى بعض الدول المجاورة من الجهة الجنوبية كمالي والنيجر[34]،وتمبكتو،وأرض السودان الإفريقي[35].

يتبين لنا من خلال ما ذكرنا، أن مشايخ المنطقة أهل ترحال،إذ قلّما عُرف عنهم الاستقرار في موضع معين،وذلك كله من أجل التعرف على العديد من العلماء للاستزادة في اكتساب المعرفة،لأن هذه الرحلات – كما يراها ابن خلدون (ت808هـ)- " لابدّ منها في طلب العلم، لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال"[36].

يتضح من كلام ابن خلدون أن لقاء المشايخ يساعد على علو الكعب وغناه بالمعارف العلمية، التي يعود بها العالم، ليفيد بها من يجالسهم بعد رجوعه من هذه الرحلة.

وفي الأخير يمكن القول إن هذه الرحلات تعد إحدى الوسائل التي مكنت منطقة توات، من امتلاك قسط من هذا الصيت النحوي الذي كان منبعه العراق.

أهم أعلام الدرس النحوي في المنطقة:

وتأسيساً على ما سبق، يبدو جلياً أن منطقة توات شهدت نشاطاً خصباً وازدهاراً واسعاً في العلوم اللغوية، وفي مقدمتها علم النحو الذي حظي بشيوخ خلّفوا بصمات على سجل تاريخ المنطقة، لكن ظلّوا _ ولفترة طويلة _ في

طي النسيان على الرغم من وفرة الإبداع والأعمال التي تحمل في طياتها بوادر الاجتهاد، ومن هؤلاء نجد:

- **الشيخ عبد الكريم بن أحمد بن أبي محمد التواتي** (ولد عام 994هـ الموافق لـ1585م بتمنطيط[37] التي اجتمع فيها العلم والإمارة والدين والرياسة[38]،وكذا العُمران[39]، وفيها نشأ وتعلّم، وقد كان رحمه الله "قاضياً جامعاً بين الحقيقة والشريعة"[40]،بالإضافة إلى كونه نحوياً بارعاً،ونحريراً جامعاً لعلوم مختلفة، لذلك قال عنه الشيخ البكري بن عبد الكريم[41]: " هو الشيخ الإمام العالم الهمام اللغوي النحوي البياني الحسابي الفرضي الأصولي العروضي الفقيه المحدث الجامع بين المعقول والمنقول رواية ودراية "[42]، فهذه الترجمة توحي بأن الشيخ كان رحمه الله موسوعة فكرية لعدة علوم جعلته متوجاً بتاج العلم والعمل بين الناس.

أخذه الفضول لتعلُّم علم النحو الذي كان لا يفهمه فهماً دقيقاً، ويظهر ذلك من قوله في كتابه الرحلة في طلب العلم "إن أول كلمة استفدتها من أبي كانت قوله: لم حرف جـزم، فحفظتها ولم أفهم معناها"[43]، هذا ما دفعه للتتلمذ على النحوي سعيد بن إبراهيم[44] الذي جعل منه إماماً متبحراً في علم النحو، تاركاً وراءه مؤلفات نحوية من بينها كتاب غاية الأمل في إعراب الجمل[45].

- **محمد بن أبّ المزمّري** (ت1160هـ- 1747م): هو أبوعبد الله[46]، محمّد بن أُبّ بن أحْمِيدْ، وفي رواية بن أحمد[47]،بن عثمان بن أبي بكر[48].

وقد قال عنه محمد بن عبد الكريم بن عبد الحق[49] (ت1374هـ):" هو شيخ النحو اللغوي الصيرفي، الشاعر الأديب، أبو عبد الله تبرع رحمه الله في العلوم اللسانية، وأفاد أبناء جنسه"[50].

ومن أهم آثاره في النحو نجد ما يلي:

نظم مقدمة ابن آجروم[51]، كشف الغموم على مقدمة ابن آجروم[52]، لغز في قوله تعالى:(لوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إلاَّ اللّـهُ لَفَسَدَتَا) [الأنبياء الآية 22].

وهو اللُّغز الذي فكّ قيده ابنه ضيف الله،ونصّ هذا اللُّغز هو:(رجز)

صَـاحِ سلِّمْ على النُّحـاةِ وسَلْهُمْ حبّذا حبّذا هُـمُ إن أجابُـوا
مَا مُضافٌ إليه أُعْـــرِبَ بالرَّفـ ـعِ صريحاً وذَا لَعمرِي عُجَابُ

فأجابه ضيف الله بقوله:

جَـوابُ ما سَألتَ عنهُ قـرِيبٌ فِي حزبِ الأنبيَاء هـــــدَاكَ الله
بعْـد إلاّ ولفظــهُ لفظ رفـــع ذا الجـوابُ والعَجْبُ مِن مبْداهُ

وإذا نظرنا إلى هذه الأبيات،فإن هناك ما يلفت الانتباه ويدعو إلى التأمل، ومن ذلك:أن نصَّ السؤال الذي تقدّم به محمد المزمِّري لأقرانه من أهل النحو، فحواه ما يلي: ما هو المضاف إليه الذي أُعرب بالرفع صريحاً ؟، فكان الجواب من ضيف الله بقوله: في حزب الأنبياء هداك الله، أي أن هذا المضاف إليه موجود في سورة الأنبياء،وهو بذلك يومئ إلى قوله تعالى: (لَوْ كَانَ فِيْهِمَا آلِهَةٌ إلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا) [الأنبياء الآية 22].

فلفظ اللهُ في الآيـة جاء بعد أداة استثناء بمعنى **غير**،وعليه يكـون تقـدير الآية كما يلي: لو كان في الوجـود آلهة غير اللهِ لفسدت السماوات والأرض[53]، ومعلـوم عند النحاة إن الاسم بعـد **غير** يكون مجروراً بإضافته إليها[54]،وهو ما يحدث مع اسم الجلالة في هذه الآية لكنه جاء مرفوعاً،وهو اللغز الذي يبتغيه الشيخ بن أُبّ.

ومن مصنفاته النحوية أيضا: نزهة الحلوم في نظم منثور ابن آجروم[55]، منظومة في أمثلة المتعدي واللازم من الرباعي المجرّد[56]،نظم على معاني بعض حـروف الجر[57]،النّفحة الرّندية بشـرح التحـفة الـورديّة[58]: وهو شرح على تحفة ابن الـوردي[59] النحوية، نيل الـمُراد من لاميّة ابن المجراد[60] ؛وهذا الكتاب هو شرح على لامية بن المجراد المغربي[61] (ت778هـ- 1377م) في إعراب الجمل، وله أيضا منظومة في إعـراب التسـبيح الذي يقـال بعد صـلاة التـراويح؛ وهـي أبيات قـالـها في إعـراب بعض الكلمـات مـن الدعـاء الذي يُقـال بعـد صلاة التـراويـح في المنطقـة[62]، وله كذلك منظومة روضة الـنَّسْرِين في مسائل التمرين[63]: وهي منظومة عرض فيها مسائل التمرين الواردة في شافية بن الحاجب[64]، بالاضافة إلى شرح روضة الـنَّسْرِين في مسائل التمرين[65].

- **عبد الرحمان بن عمر التنيلاني** (ت1189هـ -1775م): هو عبد الرحمان بن محمد بن يوسف بن أحمد، ولد بتنيلان[66]، ويعتبر من العلماء الأعلام الذين جمعـوا بين العلوم الإسلامية
واللغوية والنحوية والشعر، بالإضافة إلى فنون علمية كثيرة[67]، فقد كان رضي الله عنه على حد قول أحدهم "عالم العصر"[68]،ومن آثاره المخطوطة في النحو العربي مختصر الدر المصون في إعـراب القرآن الكريم [69].

- **محمد بلعالم الـزجلوي** (ت1212هـ): هو أحد علماء المنطقة مـن مـواليد قصـر زاجلو[70] في القرن الثاني عشر الهجري، السابع عشر الميلادي، نشأ مولعاً بعلوم الفقه والنحو والتفسير والمنطق، حتى صار عالماً متضلعاً في الفقه

والخلاف، أخذته المنية عام 1212هـ الموافق لـ1798م تاركاً وراءه عدة مؤلفات لغوية منها ألفية في غريب القرآن[71].

- **مولاي أحمد الطاهري** (ت1399هـ-1978م): أحد العلماء البارزين في منطقة توات الجزائرية، كان رضي الله عنه نحوياً، بليغاً، منطقياً، مفسراً،ولغوياً، ذا علم بالقراءات[72]، ومن آثاره في علم النحو كتاب الدر المنظوم شرح مقدمة ابن آجروم[73].

- **محمد باي بلعالم:** هو محمد بن عبد القادر بن محمد بن المختار بلعالم الفلاني، المشهور بالشيخ باي، من مواليد 1348هـ الموافق لـ1930م بقرية ساهل بآولف، وبها تعلّم مبادئ الفقه واللغة، ليتتلمذ بعد ذلك على يد الشيخ مولاي أحمد الطاهري[74]، الذي جعل منه منارة في العلم والعمل بين الناس، إذ يعدُّ من المكثرين من التأليف في شتى المعارف والعلوم، ومن إسهاماته في الثقافة النحوية نجد[75]: اللؤلؤ المنظوم نظم مقدمة ابن آجروم[76]، وكفاية المنهوم شرح اللؤلؤ المنظوم[77]،والرحيق المختوم شرح على نظم نزهة الحلوم[78]،والتحفة الوسيمة على الدرة اليتيمة[79]، ومنحة الأتراب على ملحة الإعراب[80]، وعون القيوم على كشف الغيوم[81]، انتقل إلى رحمة ربه صباح يوم الأحد الثالث والعشرين من ربيع الثاني سنة ثلاثين وأربعمائة للهجرة، الموافق لـ التاسع عشر من شهر أفريل من العام التاسع بعد الألفين للميلاد، وشُيعت جنازته في اليوم الثاني من الوفاة بمقبرة الجديد بمدينة آولف.

عبد الرحمان حفصي التديكلي: هو أحد أعلام منطقة توات، من مواليد 1932م بمنطقة آولف، تعلم على يد أبيه وجدته خديجة رحمهما الله، كما نهل من شيخه مولاي أحمد الطاهري، وللشيخ مصنفات كثيرة في شتى المعارف والعلوم، نذكر النحوية منها على سبيل المثال لا الحصر: فتح الكريم الواجد نظم مقدمة الأزهري خالد[82]، أبيات في الأفعال الثلاثيات في الصرف، أبيات في إعراب أسماء الشرط، أبيات حول مواضع زيادة كان، ولا يزال الشيخ - أطال الله في عمره إن شاء الله- يؤلف ويشتغل بالتدريس بمسجد الإمام البخاري بمنطقة عمنات[83] خلفا لوالده[84].

وعليه يمكن القول إن التصنيف النحوي في منطقة توات كان له طابعٌ خاصٌ في معظم أحواله، حيث جاء في صورة متون ومختصرات، وشروح لها، وقلَّما نجد مصنفاً قد خرج عن هذا الطابع، ورغم كل ما اتسمت به تلك الآثار من يُسرٍ ووضوح، فإنّ هناك من شكّك في نجاعة مثل هذه التآليف وقدرتها

على استيعاب المادة التعليمية، مُرجئاً ذلك إلى اختصارها وحشوها بالمعاني الكثيرة المخلّة بالتعليم، قائلاً:" ذهب كثير من المتأخرين إلى اختصار الطرق والأحاء في العلوم، يُولعون بها ويُدونُون منها برنامجاً مُختصراً في كل علم يشتمل على حصرِ مسائله وأدلتها، باختصار في الألفاظ وحشو القليل منها بالمعاني الكثيرة من ذلك الفن، فصار مُخلاً بالبلاغة وعسيراً على الفهم، وربما عمدوا إلى الكتب الأمهات المطوّلة... فاختصروها تقريباً للحفظ... وهو فساد في التعليم، وفيه إخلال بالتحصيل، وذلك لأن فيه تخليطاً على المبتدئ بإلقاء الغايات من العلم عليه،... ثم فيه مع ذلك شغل كبير على المتعلم بتتبع ألفاظ الاختصار العويصة للفهم بتزاحم المعاني عليها وصعوبة استخراج المسائل من بينها، لأن الألفاظ المختصرات نجدها لأجل ذلك صعبة عويصة،... فقصدوا إلى تسهيل الحفظ على المتعلمين، فأركبوهم صعباً يقطعهم على تحصيل الملكات النافعة وتمكنها"[85].

وإذا كان من الصعب عليّ أن أقدِّم تعليقاً على هذا التشكيك، فإنه لا يستطيع أحد أن ينكر أن البون شاسع بين من يُحصِّل العلم بيُسرٍ وسهولة،وذلك الذي يُحصِّله بكدٍ وعناء ومشقة، ثُم إنه لو سلّمنا بغموض عبارات هذه السلسلة التأليفية، فإنّ ذلك لم يكن من الظواهر التي انفردت به المتون وما بُني عليها من مؤلفات وحدها حتى تُعاب به دون غيرها، فإنّ أمهات الكتب القديمة لا تخلو من ذلك، و إلاّ لما كثُرت الشروح على كتاب سيبويه مثلاً، والأكثر من ذلك أن من العلماء السابقين من كان يسعى إلى الغموض والتعمية في تآليفه، ومع ذلك ظلت له ولكتبه مكانة عُليا عند الدارسين، ولم يُعَبْ عليه ذلك في زمانه ولا بعد زمانه.

أما الإيجاز الذي اتسمت به هذه المؤلفات إذا كان القصد منه تسهيل الحفظ وسرعة استحضار المعلومات ؛ فهو في حقيقة الأمر طور طبيعي في تاريخ التأليف، إذ لا بُدّ من أن يعقب طور التّوسع طور يُقرِّبُ لطلاب العلم وناشئته تناول مسائل العلم،ويُعاونهم على بلوغ أمنياتهم من العلم في وجازة وعجلة، وبخاصة صغار المثقفين منهم.

ويرى الشيخ محمد عرفة أن الأمم "إنّما تمتاز بفهم الغامض، وإدراك البعيد، وحلِّ المستغلق، وذلك لا يكون إلاّ بتعويد المرء على شيء من الصِّعاب، ليُمرِّن عقله على حلِّ ما يُماثلها، وكما أن المرء الرياضي لا يكون قوياً على حمل الأثقال إلاّ بالتعود على حمل أحمال ثقيلة متدرجاً في ذلك، كذلك لا يكون عقله

قادراً على حلِّ الصِّعاب إلاّ إذا عوَّد عقله على حلِّ مسائل عويصة متدرجاً في ذلك"[86].

ومهما يكن من شيء، فإنّ الذي ينبغي ألاّ يغيب عن ذهن القارئ المنصف في كل الأحوال، هو أن هذا الأسلوب التأليفي يُشكِّل جزءاً كبيراً من تراثنا الخالد الذي لا يستغنى عنه الدارس مهما علا كعبه في العلوم والمعارف.

الإحالات:

[1] - أحمد العماري،توات في مشروع التوسع الفرنسي بالمغرب من حوالي 1850إلى 1902م، منشورات كلية الآداب بفاس، المغرب، ط1، 1988، ص11.

[2] - سبخ: أي ذات ملح ، الرازي، مختار الصحاح، دار الكتاب الحديث، الكويت، ط1، 1993، ص199.

[3] - أحمد الطاهري، نسيم النفحات في ذكر جوانب من أخبار توات ومن دفن فيها من الأولياء والصالحين والعلماء العالمين الثقات، ومعه حديث جابر، طبعة حجرية، ص04.

[4] - محمد باي بلعالم، الرحلة العلية إلى منطقة توات لذكر بعض الأعلام والآثار والمخطوطات والعادات وما يربط توات من الجهات، دار هومة، دط،دت، ج1، ص09.

[5] - أدرار : كلمة بربرية تعني الجبل. إسماعيل العربي، الصحراء الكبرى وشواطئها، المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر،دط،1983، ص188.

[6] - ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تح : خليل شحادة، مراجعة : سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، دط، 2000، ج7، ص 76.

[7] - قورارة : نسبة إلى السبخة التي توجد في المنطقة تدعى بتيجورارين و منطقة قورارة تطلق على ضواحي تيميمون. يُنظر، محمد الصالح حوتية،توات والأزواد، دار الكتاب العربي، الجزائر، دط، 2007، ج1، ص28،و توات في مشروع التوسع الفرنسي، ص18.

[8] - تيديكلت : كلمة بربرية تعني كف اليد أو اليد المفتوحة، و منطقة تيديكلت تقع مابين منطقة رقان وعين صالح. عبد المجيد قدي، صفحات من تاريخ منطقة آولف،أبحاث للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 2007، ص18.

[9] - ينظر: نسيم النفحات، ص05. ومحمد بن عبد الكريم، درة الأقلام في أخبار المغرب بعد الإسلام، ص06، نقلاً عن عبد الحميد بكري، النبذة في تاريخ توات

وأعلامها من القرن التاسع الهجري إلى القرن الرابع عشر، دار الغرب للنشر والتوزيع، الجزائر،ط2007،2، ص16.

[10] - نسيم النفحات، ص05.

[11] - عبد الرحمان السعدي،تاريخ السودان، طبعة هوداس،باريس،دط، 1964، ص07.

[12] - ينظر: مولاي التهامي غيتاوي، سلسلة النوات في أبرز شخصيات من علماء وصالحي إقليم توات، المطبعة الحديثة،2005، ج1،ص10، والرحلة العلية إلى منطقة توات، ج1، ص 09.

[13] - هو عقبة بن نافع الفهري، من مواليد السنة الأولى قبل الهجرة، وفي خلافة يزيد بن معاوية، ولاّه سنة 62هـ على إفريقيا، توفي رحمه الله بمدينة بسكرة الجزائرية. أبو عمران الشيخ وآخرون، معجم مشاهير المغاربة، جامعة الجزائر، 1995م ، ص365-366.

[14] - النبذة في تاريخ توات وأعلامها،ص20.

[15] - فرج محمود فرج،إقليم توات خلال الفرنين الثامن عشر والتا سع عشر الميلاديين،، أطروحة لنيل دكتوراه الدور الثالث في التاريخ، جامعة الجزائر،دط،1977، ص85.

[16] - إقليم توات خلال الفرنين الثامن عشر والتا سع عشر الميلاديين ، ص92.

[17] - يُنظر، النبذة في تاريخ توات، ص 72. و محمد بن أبّ المزمّري حياته وآثاره،ويليه مخطوط شرح روضة النسرين في مسائل التمرين، تح، أحمد أبا الصافي جعفري، دار الغرب للنشر والتوزيع، الجزائر، ط03، 2008 ، ص28.

[18] - ولد في بلدة فيجاك قُرب بريما في 14 أفريل 1831م، وتخرّج طبيباً وكان يعمل في الجزائر كطبيب مع الجيش الفرنسي، وقام برحلات كثيرة شملت المغرب العربي والأسكندرية والسودان الغربي، إقليم توات،ص 08.

[19] - Rolfs a Touate et Ibn Salah , Malte Brum, P101. نقلا عن المرجع نفسه، ص 14.

[20] - ديبورتير في ذلك الوقت كان برتبة قوميدان، المرجع نفسه، ص 07.

[21] - La question du Touate Sahara Algérien , Deporter , P34 .نقلاً عن المرجع نفسه، ص 14

[22] - يُنظر،تاريخ ابن خلدون، ج6، ص 80. و ج7،ص 77.

[23] - نسيم النفحات، ص 05.

[24] - ينظر، إقليم توات، ص05.وتوات والأزواد ، ج1، ص274. و الصديق حاج أحمد، التاريخ الثقافي لإقليم توات من القرن 11ه إلى القرن 14ه مديرية الثقافة لولاية أدرار،ط2003،01،ص 155.

[25] - ينظر، النبذة في تاريخ توات، ص 52-53. و محمد بن أب المزمري، ص 28-29.والرحلة العلية إلى منطقة توات،ج1،ص66،والتاريخ الثقافي لإقليم توات، ص52.

[26] - الدر المنظوم شرح مقدمة ابن أجروم ، ص116.

[27] - ينظر، توات والأزواد، ج1،ص259،254،245. و النبذة في تاريخ توات وأعلامها ، ص54.و التاريخ الثقافي لإقليم توات ، ص48.

وصفحات من تاريخ منطقة آولف ،ص216، وسلسلة النوات، ص11.

[28] - النبذة في تاريخ توات وأعلامها ، ص55.

[29] - محمد العبدري البلنسي،الرحلة المغربية،، تق:سعد بوفلاقة، منشورات بونة، الجزائر، ط2 ،2007، ص12.

[30] - ينظر،الرحلة العلية إلى منطقة توات، ج1، ص79، 250، 394. وإقليم توات، ص15.

[31]- ينظر التاريخ الثقافي لإقليم توات،من ص157 إلى ص161.إقليم توات ص15،صفحات من تاريخ منطقة آولف،ص 113

[32] - هو محمد بن عبد الكريم بن محمد بن المغيلي بن عمر بن مخلوف بن علي بن الحسن، المعروف بابن عبد الكريم المغيلي، ولد سنة 831ه الموافق لـ1427م بمدينة مغيلة التلمسانية وبها نشأ وتعلّم مبادئ العلوم، ليغادر تلمسان لرسم الدعوة إلى الله والدفاع عن إقامة الحدود، فأحط بتوات عام 856ه، فكان من أبرز العلماء الوافدين على المنطقة، ومن آثاره شرح المفتاح في البلاغة، شرح الجمل للخونجي في المنطق، الرد على المعتزلة، منح الوهاب في المنطق،، راسل السيوطي في المنطق وانتصر لآراء أرسطو، توفي عام 909ه- 1503م وقُبر بالزاوية التي أخذت اسمه من ذلك الحين إلى حد الآن (زاوية الشيخ بن عبد الكريم المغيلي)،ينظر، معجم مشاهير المغاربة، ص 505. وسلسلة النوات في أبرز علماء توات، ج1، ص38 وما بعدها، والنبذة في تاريخ توات وأعلامها، ص 99.

[33] - يُنظر المناظرة في: سلسلة النوات في أبرز علماء توات، ج1، ص47.

[34] - الرحلة العلية إلى منطقة توات، ج1 ،ص79.

[35] - ينظر، التاريخ الثقافي لإقليم توات، ص 15، و محمد بن أبّ المزمري، ص43.

[36] - ابن خلدون، المقدمة، نسخة محققة لونان بإخراج جديد، دار الفكر، بيروت،دط، 2004، ص560.

[37] - تمنطيط اسم لمدينة في إقليم توات، وهي قريبة من عاصمة الولاية ادرار، وهي كلمة بربرية تعني بالعربية الجبهة والعينان. الرحلة العلية إلى منطقة توات،ج1، ص20.

[38] - محمد الطيب بن الحاج عبد الرحيم، القول البسيط في أخبار تمنطيط، تح: فرج محمود فرج، تابع لأطروحة الدكتوراه، الجزائر 1977م، ص13-14.

[39] - تاريخ بن خلدون، ج 7،ص 76.

[40] محمد بن عبد الكريم بن عبد الحق التمنطيطي،، مخطوط بخزانة المطارفة، أدرار، ص29.

[41] - هو البكري بن عبد الكريم البكري، من مواليد الثاني عشر من رمضان عام 1042هـ بتمنطيط، وبها تعلّم عدداً من المقدمات في الفقه والنحو وغيره حتى صار عارفاً عالماً في فنون شتى، توفي سنة 1133هـ عن عمر يناهز 93 سنة.يُنظر النبذة في تاريخ توات وأعلامها،ص 160، و جوهرة المعاني في التعريف بعلماء الألف الثاني،ص 20،و النبذة في تاريخ توات وأعلامها،ص 160.

[42] - النبذة في تاريخ توات وأعلامها، ص153.

[43] - المرجع نفسه، ص148.

[44] - هو سعيد بن إبراهيم بن حمودة الجزائري المسكن، التونسي الأصل، التقى به الشيخ في مدينة بني عباس التابعة لولاية بشار. المرجع نفسه، ص150.

[45] - هذا الكتاب هو شرح للامية ابن المجراد، وهو لا يزال مخطوطاً، ينظر، عبد الحميد بكري، سلسلة علماء توات، دار الغرب للنشر والتوزيع،الجزائر، دط، دت، ج2، ص48، والنبذة في تاريخ توات وأعلامها، ص155، وجوهرة المعاني، ص30.

[46] - ينظر،جوهرة المعاني في التعريف بعلماء الألف الثاني،ص30، ودرة الأقلام،نقلاً عن محمد عبد العزيز سيدي عمر، قطف الزهرات من أخبار علماء توات،، دار هومة، الجزائر، دط، 2002م، ص111.

[47] - محمد بن بادي، مقدم العي المصروم شرح على نظم ابن أبّ لآجروم، طبعة حجرية، ص01.

[48] - ينظر، النبذة في تاريخ توات وأعلامها،ص108، وقطف الزهرات من أخبار علماء توات،ص111، ومحمد بن أبّ المزمري، ص41، وصفحات من تاريخ منطقة أولف، ص81.

[49] - هو القاضي محمد بن عبد الكريم بن عبد الحق البكري، من مواليد 1300هـ الموافق لـ1883م ،بتمنطيط، حفظ القرآن عن ظهر قلب، تولى مهنة القضاء بتوات سنة 1354هـ- 1935م، فكان في الناس إماماً مفتياً وقاضياً عادلاً،ومن آثاره كتاب

جوهرة المعاني في التعريف بعلماء الألف الثاني، وهو كتاب نفيس في التراجم والأعلام، توفي رحمه الله في يوم الأحد الخامس والعشرين من ذي الحجة سنة 1374هـ الموافق لـ الثالث عشر من شهر أوت عام 1955 للميلاد، ينظر، النبذة في تاريخ توات وأعلامها، ص90، والتاريخ الثقافي لإقليم توات، ص83.

[50] - جوهرة المعاني في التعريف بعلماء الألف الثاني، ص30.

[51] - مخطوط بخزانة الشيخ باي بلعالم، أولف، أدرار. وقد حظي هذا النظم بشرحين، أحدهما للشيخ مولاي أحمد الطاهري، سماه بـ **(الدر المنظوم شرح مقدمة ابن آجروم)**، والكتاب مطبوع عن مطبعة الواحات غرداية، والشرح الآخر للعلامة محمد بن بادي، سماه بـ **(مقدم العي المصروم شرح على نظم ابن أبّ لآجروم)**، وهو في طبعة حجرية.

[52] - مخطوط بخزانة ابن الوليد وليد، أدرار، وقد تقدم الشيخ باي بشرح هذا النظم، سماه بـ **(عون القيوم شرح على كشف الغموم على مقدمة ابن آجروم)**، والكتاب مخطوط بخزانة الشيخ باي.

[53] - ينظر،، ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، إشراف :محمد بنيس، دار الفكر، بيروت، ط1، 2006،ج3، ص1211. وعبد الرحمان الثعالبي، الجواهر الحسان في تفسير القرآن،، تح :أبي محمد الغماري الأدريسي الحسني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1996، ج2، ص263-264.و أبو البقاء العبكري، إملاء ما منّ به الرحمان من وجوه الأعراب والقراءات في جميع القرآن، تح : نجيب الماجدي، المكتبة العصرية، لبنان، ط2002،1، ص378.و الفراء، معاني القرآن_، تح : إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1، 2002، ج2، 113. والمفصل في_صنعة الإعراب، ص99.

[54] - ينظر سيبويه،الكتاب،تح : إميل بديع يعقوب،دار الكتب العلمية،بيروت،ط1999،1م، ج2، ص361.و المقتضب ص619. وابن هشام، شرح شذور الذهب،، تح: محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية،لبنان،دط،2002، ص287. وأبو البركات الأنباري، أسرار العربية ، تح: بركات يوسف هبود، دار الأرقم،لبنان،ط1999،1،ص160، وابن هشام،شرح قطر الندى وبل الصدى،، تح: إميل يعقوب، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1، 2007، ص232.

[55] - مخطوط بخزانة ابن الوليد وليد، أدرار، وهو أيضا حظي بشرح من لدن الشيخ باي، سماه بـ (الرّحيق المختوم على نزهة الحلوم في نظم منثور ابن آجروم)، والكتاب مطبوع.

[56] - مخطوط بخزانة ابن الوليد وليد، أدرار.

[57] - مخطوط بخزانة الشيخ باي، أولف، أدرار.

[58] - مخطوط بخزانة الشيخ باي، أولف، أدرار.

[59] - هو عمر بن مظفر بن عمر بن محمد بن أبي الفوارس زين الدين بن الوردي المصري، كان إماماً بارعا في الفقه والنحو والأدب، ومن مؤلفاته النحوية شرح ألفية بن مالك، وضوء الدرة على ألفية بن معطي، ونظم تذكرة الغريب، توفي في 17 ذي الحجة عام 749هـ أي 15 مارس 1349م بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، ج2، ص 226 -227.

[60] - مخطوط بخزانة ابن الوليد وليد، أدرار.وهو محقق من لدن د/ مختار بوعناني في طبعة خاصة ومحدودة.

[61] - هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد بن عمران الفنزاري السلاوي الشهير بابن المجراد، من أهل سلا(جوار الرباط)، من مؤلفاته : لامية في إعراب الجمل،و ايضاح الأسرار والبدائع، وشرح الدرر،توفي بسلا بأرض المغرب سنة 778هـ، ويعرفه أهل المغرب الآن بسيد الإمام السلاوي، ينظر ترجمته في : الأعلام، ج7،ص 44، ومحمد بن أب المزمري،ص 61.

[62] - هذا الدعاء هو إلى الآن يُقرأ بعد صلاة التراويح في منطقة توات، ونصه ما يلي:

سُبْحانَكَ يا قَريبُ يا مُجيبْ يا مُــولاَنَا سُبحَانَك يَا حَاضِراً لاَ يَغِيبْ يَــا مُولانَا
سُبْحانَكَ يَا فَعَّـالاً مَـا يُرِيدْ يَا مُـــولاَنَا سُبْحَانَكَ يَا مُوصُوفاً بِالْكَمَالْ يَا مُولاَنَا
سُبْحَانَكَ يَا عظِيمُ ذا الجَلاَلْ يَا مُــولاَنَا سُبْحانَكَ يَا كَرِيمُ ذَا الإحْسَانْ يَا مُولاَنَا
سُبْحانَكَ يَا مَعْرُوفُ بِالمَعْرُوفْ يَا مُولاَنَا سُبْحانَكَ يَا إلَهِي لَكَ الحَمــدْ يَا مُولاَنَا
لكَ الحَمْدُ في السِّرِ لَكَ الحَمْدُ في الجَهْرِ لَكَ الحَمْدُ دائِـماً لَـــكَ الشُّكْرُ أبدا

[63] - مخطوط بخزانة ابن الوليد وليد، أدرار، وهو مطبوع كاملاً داخل كتاب محمد بن أبّ المزمري، ص171 وما بعدها.

[64] هو عثمان بن عمر بن أبي بكر بن يونس الكردي، الدوين الأصل الإسناني المولد بسنة 570هـ أي 1175م، أخذ اسم ابن الحاجب لأن أباه كان جندياً كردياً حاجباً للأمير عز الدين الصلاحي، كان فقيها نحوياً لغوياً، ومن مؤلفاتة الشافية وشرحها، والكافية وشرحها، توفي عام (646هـ- 1249م) بالأسكندرية، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، ج2، ص 134 – 135.

[65] - مخطوط بخزانة ابن الوليد وليد،أدرار، وهو مُحقق في كتاب : محمد بن أب المزمري حياته وآثاره، بداية من ص 67 إلى ص 217.

[66] - الغصن الداني في ترجمة وحياة الشيخ عبد الرحمان بن عمر التنيلاني، محمد باي بلعالم، دار هومة، الجزائر،دط،2004م ص 03 -04.

[67] - الرحلة العلية إلى منطقة توات،ج2، ص160.

[68] - عبد القادر بن عمر بن عبد الرحمان التينلاني، الدرة الفاخرة في ذكر المشايخ التواتية، مخطوط بخزانة بن الوليد وليد،(ص ب 73) أدرار، ص02.

[69] - الكتاب مخطوط بخزانة باعبد الله، أدرار،محمد بن أب المزمري، ص36، وموجود كذلك بخزانة الشيخ باي بآولف بعنوان : مختصر السمين في إعراب القرآن.

[70] - هي تابعة لمنطقة توات،وهي كلمة بربرية تعني قطع اللحم (زم أقلي)، الرحلة العلية إلى منطقة توات، ج1، ص 13.

[71] - الزجلوي، ألفية الغريب،، دراسة وتحقيق، عبد القادر بقادر، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في اللغة العربية وآدابها، جامعة أدرار، 2009/2008م، ص 11 وما بعدها.

[72] - أحمد الطاهري، الدر المنظوم شرح مقدمة ابن آجروم، مطبعة الواحات ، غرداية، دت، ص06.

[73] - هذا الكتاب هو شرح لنظم الأجرومية لمحمد بن أب المزمري.

[74] - صفحات من تاريخ منطقة آولف، ص112.

[75] - ينظر، صفحات من تاريخ منطقة آولف، ص113-114،و قبيلة فلّان في الماضي والحاضر، محمد باي بلعالم، دارهومة، دط، دت، ص273.

[76] - هو نظم على مقدمة ابن أجروم.

[77] - هو شرح لنظم مقدمة ابن آجروم الذي وضعه بن أبّ.

[78] - شرح لنظم نزهة الحلوم لمحمد بن أبّ المزمري.

[79] - شرح لأرجوزة في النحو العربي.

[80] - هو شرح لملحة الإعراب للحريري.

[81] - شرح كشف الغموم لمحمد بن أب المزمري.

82 - وهو محقق في مذكرة ماجستر بعنوان : فتح الكريم الواجد نظم مقدمة الأزهري خالد، دراسة وتحقيق.

83 - ضاحية من ضواحي منطقة آولف.

84 -عبد الرحمن حفصي، فتح الكريم الواجد نظم مقدمة الأزهري خالد، دراسة وتحقيق، محمد بن عبو، مذكرة من متطلبات نيل شهادة الماجستير، جامعة ورقلة، 2009-2010 م.

85 - المقدمة، ص 551.

86- النحو والنحاة بين الأزهر والجامعة، محمد عرفة،دون مكان الطبعة، دط، دت، ص 106.